# الفصل التاسع

## المهاجر ١٩٩٤

وصل التطرف الدينى فى مصر إلى محاولة اغتيال الكاتب الكبير نجيب محفوظ يوم الجمعة ١٤ أكتوبر عام ١٩٩٤، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الحملة ضد فيلم يوسف شاهين «المهاجر»، والقضية التى نظرتها المحاكم ضد الرقابة لموافقتها على الفيلم.

وفى يوم ١٧ أكتوبر نشر كاتب هذه السطور المقال التالى فى جريدة «الجمهورية»: «عبر أغلب نقاد السينما فى مصر عن اعجابهم بفيلم «المهاجر: أحدث أفلام فنان السينما الكبير يوسف شاهين، ثم بدأت الصحف والمجلات تنشر فى الزوايا واليوميات والرؤى لغير نقاد السينما أن الفيلم على ضوء النظرية السوقية المسماة «السم فى العسل» يعادى الوطنية المصرية ويتجرأ على المحرمات الدينية الإسلامية، وهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم نقاد الوطنية وحماة الدين هم على وجه التحديد الذين يهاجمهم الفيلم فى دعوته ضد كافة أشكال الفاشية والعنصرية والتبلد الفكرى.

إن لغة السينما مثل لغة الكتابة أو لغة التشكيل أو لغة الموسيقى يجب أن يتعلم المرء كيف يقرؤها إذا أراد أن يتصدى لنقدها، وأن يتعلم كيف يكتب بها إذا أراد التعبير باستخدامها، والأهم من ذلك أن نقاد الوطنية وحماة الدين الذين يجعلون من أنفسهم قضاة من دون قانون، وفقهاء من غير علم لايريدون أن يتعلموا من دروس التاريخ، ولعل محاولة اغتيال كاتبنا الأعظم نجيب محفوظ يوم الجمعة الماضى بنفس منطق الدفاع عن الوطن والدين، تردهم عن الاستمرار فى الطريق المظلم الذى يسيرون فيه، فلا أحد فى هذا العالم يملك الحق الأخلاقى فضلا عن الحق الدستورى فى تخوين أحد أو تكفير أحد، ويالها من مأساة كبرى أن يتصور مصرى واحد أن الدفاع عن الوطن والدين يعنى قتل نجيب محفوظ أو منع فيلم يوسف شاهين».

وعشية بدء المحاكمة نشر كاتب هذه السطور المقال التالى فى نفس الجريدة يوم ٢٤ أكتوبر:

«تنظر غدا محكمة الأمور المستعجلة فى عابدين الدعوى التى اقامها أحد المحامين لوقف عرض فيلم «المهاجر» أحدث أفلام فنان السينما المصرى الكبير يوسف شاهين. بدأ عرض الفيلم فى مصر ولبنان والأردن يوم ٢ سبتمبرالماضى وسط حفاوة بالغة من أغلب نقاد السينما، وربما للمرة الأولى فى حياته كتب الدكتور على الراعى عن السينما بعد أن شاهد الفيلم تحت عنوان «ملحمة فى حب مصر» فى «المصور» ولاشك أن الراعى هو أكبر نقاد الدراما فى مصر والعالم العربى كله.

وبعد ثلاثة أيام من بدء العرض بدأت حملة تخوين وتكفير يوسف شاهين فى «الوفد» وتجاوزت عشر مقالات حتى الآن بأقلام كتاب وكاتبات أغلبهم ليسوامن نقاد السينما. وربما ليس من الغريب أن ينشر أول خبر عن دعوى المطالبة بوقف عرض الفيلم يوم السبت ١٥ أكتوبر بعد ساعات من محاولة اغتيال نجيب محفوظ تحت نفس شعارات التخوين والتكفير. ومن البديهى أن من حق كل مواطن أن يرفع إلى القضاء ما يريد، وأن من حق كل كاتب أو كاتبة أن يكتب ما يشاءعن أى فيلم، ولكن يظل هناك فرق بين الناقد المتخصص فى السينما أو الدراما، وبين الكاتب غير المتخصص فى السينما أو الدراما ويظل هناك فرق بين التعبير عن عدم الاعجاب بفيلم من الأفلام وبين تخوين وتكفير صانعه. ليكن رأيكم ما يكون فى «المهاجر» ولكن من دون تكفير أو تخوين.

يندر فى العالم أن يمسك كاتب بقلمه ويطالب الرقابة بالمنع، ولكن هذا يحدث عندنا مع الأسف ومن الواجب على الكاتب أن يعرف لمن يكتب وفى

أى زمن تنشر كلماته، فعندما ينشر هذا الكلام عن تخوين وتكفير يوسف شاهين فى زمن يتم فيه تضليل ملايين من الشباب باسم الدين، تصبح الكلمات دعوة صريحة للقتل. ومن التناقضات المثيرة للسخرية أن بعض من يخونون ويكفرون يوسف شاهين يستنكرون محاولة اغتيال نجيب محفوظ، بل وفى نفس الصفحة. وكما يحتار القارىء بين رأى المفتى ورأى شيخ الأزهر حول قضية ختان البنات، يحتار بين قول على الراعى أن الفيلم «ملحمة فى حب مصر» وبين رأى أحمد رأفت بهجت مثلا فى أن الفيلم تعبير عن كراهية مصر، بل وكل أفلام شاهين وكل الأقلام التى تدافع عن شاهين.

وبغض النظر عن حالة من يتصور أنه المعيار لمعرفة مدى حب هذا المواطن أو ذاك لوطنه،وبغض النظر عن مفهوم حب الوطن فى هذا السياق حيث يصبح حب الوطن هو التعبير عن كل ما هو جميل وايجابى ويصبح كره الوطن التعبيرعن كل ما هو قبيح وسلبى، وبغض النظر عن أن هذا المفهوم يحيل كل الأدب والفن إلى المحكمة بتهمة خيانة الوطن، وبعنى ضمنا أن على كل الكتاب والفنانين العمل فى هيئة الاستعلامات فإن «الاتهامات» الموجهة إلى فيلم «المهاجر» تقوم على فهم خاطىء للفيلم نتيجة العجز عن قراءة اللغة السينمائية، أو تقوم على جهل بالمعلومات الأولية البسيطة. والأدهى من هذا وذاك أن هناك من يحاكمون يوسف شاهين على نياته، بينما الله سبحانه وتعالى هوعالم النوايا ولايملك أى مخلوق العلم بالنوايا.

خلاصة الاتهامات الموجهة إلى يوسف شاهين فى فيلم «المهاجر» أنه يسىء إلى حكام مصر من الفراعنة، ويسىء إلى الشعب المصرى بقوله أن بطل الفيلم البدوى جاء ليعلم الفلاح المصرى الزراعة،وأن يوسف شاهين يرمى إلى التطبيع مع دولة إسرائيل الصهيونية من خلال استلهام قصة سيدنا يوسف عليه السلام باعتباره أول يهودى جاء إلى مصر.

وإذا لم يكن من الغريب أن يردد القوميون هذا الكلام فإن الغريب حقا أن يردده الإسلاميون وقد تحالفوا أخيرا فى بيروت والحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه. أما قراءة البدوى الذى يعلم الفلاح المصرى الزراعة فهى عجز عن قراءة الفيلم، أو قراءة للنوايا من خارجه والأولى بيهود إسرائيل أن يغضبوا من الفيلم لأن بطله يأتى إلى مصر بارادته ليتعلم الزراعة، ولأنه يعود إلى بلده بعد أن يتعلم ولايقيم فى مصر هو ونسله، ولايلحق به أخوته وأهله كما فى التوراة والقرآن الكريم.

وهؤلاء الذين يتناولون الفيلم من موقع الثقافة الإسلامية عليهم أن يعودوا إلى القرآن الكريم ليعرفوا أن بنى إسرآئيل هم أبناء سيدنا يعقوب الذى لقب بإسرائيل ومعنى إسرائيل المجاهد مع الله، وأن يوسف هو ابن يعقوب من بنى إسرائيل وليس من اليهود أبناء أخوة يهوذا، فتعبير بنى إسرائيل ليس مرادفا لليهود، أما تعبير العبرانيين فهو وصف للقبائل الآسيوية التى كانت تعبر بين الأماكن أى البدو الرحل الذين لايستقرون فى مكان، وقد صورهم الفيلم فى حال من الهمجية فى حياتهم وسلوكهم على النقيض تماما من المصريين بناة الحضارة على ضفاف النيل.

هؤلاء عليهم أن يعودا إلى القرآن الكريم ليعرفوا أن هناك قرونا طويلة تفصل بين زمن يوسف الصديق (من صدق الرؤيا، وليس من الصدق أو الصداقة) وبين زمن موسى عليه السلام، وأن الله سبحانه وتعالى بعث موسى نبيا لانقاذ اليهود من بطش الفراعنة، وأن الله سبحانه وتعالى يفرق فى القرآن الكريم بين حاكم مصر فى عهد يوسف فيطلق عليها الملك وبين حاكمها فى عهد موسى فيطلق عليه الفرعون. والذين يعتبرون قوم يوسف أو قوم موسى اجدادا من يحتلون فلسطين اليوم إنما يرددون عن جهل خرافة من خرافات الحركة

الصهيونية وهى حركة سياسية تتقنع بأقنعة دينية مثل حركة الإسلام السياسى.

أما مسألة كراهية الأجانب فى مصر الفرعونية فهى حقيقة تؤكدها البرديات التى تصف الأسيويين بالتوحش، بل وتقول «الكلاب الأسيويين». ويقول الامام محمد عبده فى تفسير «المنار» للقرآن الكريم، «أول من دخل مصر من بنى اسرائيل هو يوسف عليه السلام وانضم إليه بعد ذلك اخوته ونما نسله ونسلهم فيها وكثر حتى قيل إنهم يوم خرجوا من مصر ستمائة ألف، وهذا النمو كان فى مدة أربعمائة سنة، وكان المصريون من آل فرعون لايحبون مساكنة الغرباء فلما رأى فرعون نمو شعب اسرائيل خاف مغبة الأمر، لأنه كان يعلم أنهم إذا كثروا يبسطون فى الأرض، ويزاحمون المصريين فطفق يستبد بهم ويكلفهم بالأعمال الشاقة كصنع الطوب لبناء الهياكل لعلمه أن الذل يقلل النسل ويفضى بالأمة إلى الانقراض». ولكن الناقد أحمد رأفت بهجت مثلا يقول بالنص أن فيلم شاهين «يخرج على بعض الحقائق المسلم بها ما يدعيه عن كراهية مصر للأجانب» قبل أن يهتف «ستبقى مصر رغم أفلام وأقلام الكارهين»!!.

وليس ثمة أخطاء تاريخية فى فيلم المهاجر من حيث اعتبار قدوم يوسف عليه السلام إلى مصر فى عصر (اخن ـ آتون) فلا يوجد تاريخ موثق يؤكد أن ينفى ذلك حتى الآن، والفكرة ذاتها هى فكرة الكاتب الألمانى توماس مان فى روايته المسماه يوسف، وقد قرأ شاهين التوراة والانجيل والقرآن الكريم، واستوحى من قراءاته قصة لا علاقة لها بأى نص دينى أو غير دينى، وصنع فيلما آخر عن يوسف شاهين ورؤيته للعالم».

وفى يوم ١٦ نوفمبر ١٩٩٤ نشر كاتب هذه السطور فى جريدة «الجمهورية» المقال التالى:

أصبح علماء الدين يفتون فى السينما،فهل يفتى علماء السينما فى الدين ؟

وأصبح القضاة يحكمون على الأفلام بدلا من النقاد، فهل يحاكم النقاد المتهمين ؟!

حل علماء الدين محل نقاد الأدب، وأفتوا فى رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» وحلوا محل نقاد السينما، وأفتوا فى فيلم يوسف شاهين «المهاجر».

وها هو أحد المحامين يرفع دعوى أمام المحاكم ليفتى القضاة فى فيلم «المهاجر» بدعوى أن الفيلم يتناول قصة النبى يوسف عليه السلام تناولا يتعارض مع ما ورد فى الكتب السماوية ويحمل مضامين سياسية «تحد من قدرمصر وشعبها وتسقط قيمة وحضارته». ومن مصادفات القدر ذات الدلالة أن ينشر أول خبر عن هذه الدعوى فى نفس الصحف التى نشرت فى صفحاتها الأولى خبر محاولة اغتيال نجيب محفوظ، وقد كان على المحامى أن يتراجع حتى لاتصبح دعواه بقصد أو من دون قصد، محاولة للتحريض على اغتيال يوسف شاهين بدوره، ولكنه لم يفعل.

ووصل الأمر إلى مجلس الشعب حيث قدم أحد النواب طب إحاطة حول «المهاجر» إلى وزير الثقافة على نفس الأسس التى استند إليها المحامى فى رفع دعواه، من حق كل انسان بالطبع أن يكون له رأى فى رواية أو أى فيلم، ولكن عندما يقول ناقد السينما رأيه فى فيلم يكون هذا مجرد رأى، أما عندما يقول عالم الدين رأيه منشورا على الناس فإنه لا يصبح مجرد رأى وإنما أقرب إلى الحكم على الفيلم بالمنع أو الإباحة، وعندما يقول النائب فى البرلمان رأيه فى مجلس الشعب فإنه لايصبح مجرد رأى، وإنما أقرب إلى تمثيل كل الشعب المصرى.

ولنضع جانبا حرية الرأى، والدستور الذى يكفل حرية الرأى، ولنضع جانبا أن «أولاد حارتنا» رواية خيالية، وأن «المهاجر» فيلم خيالى، وننظر فيما يقال لنرى أنه بدوره مجرد رأى، قابل للصواب والخطأ، ولكنه لايصبح مجرد رأى لأن من يقول به لا يقول به بصفته متذوقا للأدب أو السينما وإنما بصفته محاميا أو عالما فى الدين أو نائبا فى البرلمان.

يقولون الفيلم لم يلتزم قصة النبى يوسف عليه السلام كما جاءت فى الكتب السماوية، فهل يفهم من هذا إلا أنه مطالبة للمخرج أن يلتزم بما جاء فى الكتب السماوية بينما يمنع الأزهر وتمنع التقاليد الإسلامية قبل الأزهر تجسيد الأنبياء فى الأعمال الخيالية. لقد قدم يوسف شاهين السيناريو إلى الأزهر تحت عنوان «يوسف واخوته» ولكن الأزهر طلب تغيير العنوان وعدم تجسيد النبى يوسف عليه السلام، أى عدم الالتزام بالقصة كما جاءت فى الكتب السماوية، ووافق يوسف شاهين على ذلك احتراما للأزهر، واحتراما للتقاليد الإسلامية، وأعاد كتابة السيناريو على أساس استلهام قصة النبى، وعدم الإلتزام بما جاء فى الكتب السماوية حتى تصبح مختلفة، فهل يعاقب المرء على الشىء ونقيضه فى رأى المحامى وعالم الدين ونائب البرلمان فى مصر عام ١٩٩٤م؟

ويقولون أن الفيلم يحط من قدر مصر وشعبها ويسقط قيمة وحضارته وهو مجرد رأى خاطىء فى تقديرنا مثلا، وصائب فى تقدير آخرين، إذ أن من الممكن اعتبار أى عمل أدبى أو سينمائى أو أى عمل يحط أو لا يحط من شأن أى بلد حسب مفهوم معين يرى إن الإبداع الفنى شكل من أشكال الدعاية السياسية، وقد كان انتاج الأفلام التسجيلية مثلا فى الميزانيات الرسمية لبعض الوزارات وربما لايزال يوضع تحت بند مسمى «الدعاية والحفاوة»، فهل تصبح الأفلام التسجيلية دعاية وحفاوة؟

يمكن جدا بهذا المفهوم للفن اعتبار الرسام محمود سعيد يسيء إلى مصر برسم النساء العاريات، أو رسم بنات بحرى بالملاية اللف بدلا من رسم الأميرات باليشمك التركى. ويمكن اعتبار تحت محمود مختار لتمثال نهضة مصر كفرا وإلحادا لأنه يجسد مصر وهى ترفع الحجاب وتستند على تمثال أبى الهول الفرعونى وليس على مآذنة مسجد، ويمكن اعتبار رواية «زقاق المدق» فضيحة قومية لأن نجيب محفوظ يكتب فيها عن زيطة صانع العاهات الذى يشوه الكبار والصغار ليصبحوا من الشحاذين، ولا نهاية للأمثلة على هذا التفكير الذى يمكن أن يحول كل المبدعين المصريين إلى أعداء لمصر.

عندما يقول على الراعى مثلا وهو أكبر نقاد الدراما العرب أن فيلم (المهاجر) بالنص: ملحمة فى حب مصر، فعلى كل من المحامى وعالم الدين والنائب فى البرلمان أن يراجع نفسه، أو على الأقل يتردد فى حكمه بأن الفيلم يعكس «كراهية لمصر»، ليس احتراماً للناقد الكبير وغيره من كبار نقاد الدراما الذين يتفقون معه فقط، وإنما احتراماً للعلم، بل احتراماً للدين الذى يوصينا بالعلم».

وفى يوم ٢٠ فبراير ١٩٩٥ نشر يوسف شاهين فى الأهرام» المقال التالى ردا على مقال فهمى هويدى «المهاجر وعبرته»:

«لم أتعود ـ على امتداد ما يقرب من نصف قرن ـ أن أعبر عن نفسى بغير لغة السينما ولعلى لا أعرف لغة غيرها استطيع التعبير بها، وربما لهذا السبب لم أرد على أى نقد وجه لأفلامى مهما اشتط الناقدون، لكننى وجدت من واجبى أن أزيل التباسا ربما أحدثه مقال الأستاذ فهمى هويدى «المهاجر وعبرته». (الأهرام ١٤ فبراير ١٩٩٥) تقديرا للكاتب الكبير وللمنبر العريق الذى نشر له رأيه، وحرصا على أن تكون قضية فيلم «المهاجر» واضحة أمام محكمة الرأى

العام خاصة وأنها ما تزال كذلك ـ منظورة أمام محكمة الاستئناف. والمصدر الرئيسي للإلتباس الذى يحدثه مقال الأستاذ فهمى هويدى يأتى من أنه يربط بين قضايا نظرية تتعلق ببعض مسائل الفكر الدينى والفكر السياسى وبين قضية فيلم «المهاجر» وكأنه ـ وكأننى ـ المقصودان بكثير من التوصيفات القاسية التى وردت فى المقال مع أن الكاتب الكبير لم يشر إلى الفيلم الا بجمل عابرة لم يقل فى أى منها ـ بصراحة ـ أنه قد شاهده وتأكد بنفسه أنه المثال الذى يستحق منه العبرة أو العبر الكثيرة التى ساقها.

والقضية التى يتناولها المقال هى قضية تجسيد الأنبياءفى الأعمال الفنية، وقد تفضل الأستاذ فهمى هويدى فجزم بأنه لايوجد نص شرعى أو رأى فقهى سابق يحرم هذا التجسيد،وقال بأن الحظر على ذلك هو «اجتهاد» حديث اتفق عليه علماءالمسلمين المعاصرين. وبعد أن سرد المبررات التى انتهت بهم إلى هذا الاجتهاد استطرد يجتهد فى تقديم تصوره للعلاقة بين ثالوث الدين والفن والحرية وهوتصور قد اتفق أو اختلف معه فى بعض أفكاره أو فيها جميعا وكنت مستعدا للحوار حولها لولا أنها ليست من العبر التى يمكن استخلاصها من فيلم المهاجر.

لقد انطلق الأستاذ فهمى هويدى من افتراض مسبق بأن المهاجر هو تجسيد لسيرة النبى يوسف عليه السلام كما وردت فى القرآن الكريم واعتبر ذلك من المسلمات وحكم ـ من دون حيثيات ـ أن الفيلم محاولة تقديم القصة القرآنية بصورة غير مباشرة، ولم يحاول أن يبرهن على صحة هذا الحكم من وقائع الفيلم الذى قلت وأقول ويقول الفيلم نفسه ويشهد بذلك كثيرون من النقاد أنه ليس تجسيدا لشخصية النبى يوسف أو تاريخاً لسيرته كما وردت فى القرآن الكريم، ولكنه مجرد قصة متخيلة تروى سيرة انسان من بين البشر اسمه رام

ليس مقدسا ولايوجد نص شرعى أو رأى فقهى أو حتى اجتهاد معاصر يحظر حياته، وهو ما تأكدت منه الرقابة على المصنفات الفنية ـ وهى الجهة المسئولة قانونا والمتخصصة فى هذا المجال ـ حين قرأت سيناريو الفيلم وحين وافقت على عرضه.

والاختلاف بين سيرة النبى يوسف وسيرة الفتى رام ليس اختلافا شكليا يقتصر فحسب على الأسماء، لكنه اختلاف جذرى يشمل الزمان الذى عاش فيه كل منهما والمكان الذى هاجر منه كل منهم والأحداث التى كان كل منهما بطلا لها والشخصيات التى كان كل منهما طرفا فى علاقة معها. فقد

مصر إلا بسبب الانقلاب المذهبى والسياسى الذى انتهى باستبدال الأمونية بالأخناتونية، وعلى عكس النبى يوسف الذى ظل بمصر ومات بها فإن رام قد عاد إلى أهله لكى يعلمهم ما تعلم فى مصر.

أما وقد اعتذر الأستاذ فهمى هويدى عن الكلام فى النواحى الفنية مع أن القضية بمجملها قضية فنية ـ وليست دينية ـ فلن أفيض فى هذا الجانب من الموضوع لكنى لا أشك فى أنه يعرف أن المحاور التى تدور حولها الدراما بكل أشكالها لاتزيد على ٣٦ محورا فى رأى بعض النقاد استلهم معظمها من القصص الدينى الوارد فى الكتب المقدسة، وسوف نجد مشابهات بين قصة النبى يوسف وقصص أخرى كثيرة من بينها قصة فيدرا ليوربيدس والتى تدور حول نفس المحور وهى مراودة امرأة لربيب زوجها عن نفسه ورفضه لذلك.

ألا يكفى اختلاف الأسماء والزمان والمكان والأحداث والعلاقات بين الشخصيات وانتفاء أى مظهر من مظاهر النبوة لنفى هذا التجسيد؟ وهل كان عسيرا على الأستاذ فهمى هويدى أن يفترض أن رام الذى ولد بعد وفاة النبى يوسف بأربعة قرون قد وجد فيه القدوة والأسوة الحسنة التى هى بحاجة لها ولأنه بشر وليس نبيا يوحى إليه فقد سعى لأن يتعلم وحرص مثله على أن يحافظ على نقائه وعلى عفته وأن يقاوم شهوات نفسه وأن يظل وفيا لمن أحسن إليه وأن يتعاطف مع المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ويقف فى وصف الدفاع عنهم.

أليس افتراضا مثل هذا أقرب إلى حقيقة الفيلم كان كفيلا باطفاء الحرائق بدلا من أشعالها؟ أليس من الظلم البين لى أن اتهم لأننى أدعو الناس لأن يتخذوا من أنبياء الله أسوة حسنة، بل ويصل الأمر إلى الحد الذى يصعد فيه كاتب فى مكانة الاستاذ فهمى هويدى الى منبر مثل الأهرام ليضع الفيلم ـ

من دون حيثيات ـ في سياق ما وصفه بأنه انفلات وخدش للمشاعر الدينية، وهل من العدل أن يوصف فيلم يدعو إلى الصدق والإخلاص والجدية والعفة والتسامح والانتماء للآخرين وغيرها من القيم الفاضلة التي تبشر بها كل الأديان بأنه يسيء إلى مشاعر المؤمنين فيكف يكون الحرص على هذه المشاعر لعله لايكون في احتكار الصلة بالله عز وجل واستسهال الحكم على إيمان الآخرين».